منطلقات تجديد الخطاب الإسلامي
من خلال جهود بعض المفكرين الجزائريين

نفيسة دويدة : أستاذ محاضر "أ"
قسم التاريخ - المدرسة العليا للأساتذة

الملخص :

بات الحديث عن تجديد الخطاب الإسلامي (في مختلف المناسبات والمنابر) محل اهتمام متزايد من طرف الأفراد والمؤسسات والجمعيات وغيرها، واتجه النقاش فيه ليتصدر المشهد العالمي؛ لاسيما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م، وما خلفته من تحولات سياسية وتداعيات لا تزال آثارها إلى اليوم. ونظرا لمركزية العالم الإسلامي منذ عصور مضت: من حيث الموقع الجيو-سياسي، والامتداد الاستراتيجي له عبر القارات الثلاث؛ مقابل بقاء دوله تراوح مكانها في المواجهة الحضارية الدائرة من حولها؛ كان من الحتمي إيجاد مخرج ملائم من شأنه الارتقاء بحال المسلمين؛ خاصة في ظل سيادة هيمنة القوي على الأضعف.

وعليه فإن هذه الدراسة تركز على **الخلفية التاريخية لمنطلقات ودوافع تجديد الخطاب الإسلامي من خلال دراسة بعض النماذج عن المفكرين الجزائريين (في القرن العشرين) كعينة منتقاة رصدت واقع الأمة الجزائرية العربية الإسلامية، واستوعبت ضرورة التغيير بعيداً عن الوجود والهيمنة الاستعمارية، وقدمت أيضًا حلولاً وآفاقًا لمشروع التجديد، والذي كان يهدف حتمًا إلى الاعتزاز بالذات والهوية، والى إقامة الروابط الإنسانية مع العالم المحيط وفق آليات مدروسة؛ لا مفروضة من قبل الآخر.**

Abstract:

The talk about the renewal of islamic discourse is imperative, by individuals and institutions, associations and other, especially after the events of September 11t, 2001, And its Political Results.

Given the importance of the Muslim world site, Since ages past And survival outside the urban circuit, It becomes necessary for us to act to change the situation face of the dominant Western discourse.

So this study focuses on the analysis and understanding of the dimensions of renewing the Islamic discourse in Algeria, by some scientists and thinkers activity in half of the twentieth century.

مقدمة:

لاشك أن فكرة تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر باتت ضرورة ملحة في ظل ما يعيشه العالم من تطورات وتغيرات متسارعة، ونظراً لما تشهده الأمة الإسلامية خاصة من تحديات امتدت زمانياً لفترات طويلة، ولازالت إلى اليوم محل وقلب الصراع العالمي الدائر من حولها. ورغم أن العالم الإسلامي اجتاز عدة عقبات واجهته في القرون الماضية؛ إلا أنه لم يتخلص نهائياً من مشكلاته سواءً من الناحية المادية أو المعنوية والأخلاقية، وهو ما يفرض حتماً التفكير ثانية في تجديد الخطاب الإسلامي.

وعليه فإن هذه الدراسة تركز على الخلفية التاريخية لمنطلقات ودوافع تجديد الخطاب الإسلامي من خلال دراسة بعض النماذج عن المفكرين الجزائريين (في القرن العشرين) كعينة منتقاة رصدت واقع الأمة الجزائرية العربية الإسلامية، واستوعبت ضرورة التغيير بعيداً عن الوجود والهيمنة الاستعمارية، وقدمت أيضاً حلولاً وآفاقاً لمشروع التجديد الذي كان يهدف حتماً إلى الاعتزاز بالذات والهوية، والى إقامة الروابط الإنسانية مع العالم المحيط وفق آليات مدروسة لا مفروضة من قبل الآخر. ونركز بالخصوص على دراسة أفكار ثلاث شخصيات جزائرية تبنت تجديد الفكر والخطاب الإسلامي، وبرزت جهودها واضحة في هذا المجال، وهي: الإمام عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والأستاذ مالك بن نبي.

تعريف الخطاب، أهميته ومكوناته:

الخطاب هو وسيلة للتواصل بين الناس (الأفراد والمجموعات والمجتمعات)، ويعد أحد أهم الوسائل والمؤثرات على توجيه الافراد، كما أنه منبر للتنافس والإبداع، ويتوجب عليه أن يعكس صورة أحد الأطراف للآخر في سبيل منحى حضاري محدد، أو غاية معينة. وإلى الخطاب يعزى نجاح أو فشل العلاقات والتبادلات الثقافية والحضارية بين الأمم، بحيث إذا

كان مؤسسًا ومرتبًا وسليمًا ومتحضرًا سيعطي الإيحاء والانطباع بالاطمئنان لمصدره، وفي حال كان هذا الخطاب مهلهلا سطحيًا مزيفًا ومشوهًا فهو حتمًا سيخيف الآخر، ويجعله يتجنبه ويبتعد عنه بل يحاربه إن أمكن. كما أن الخطاب بمثابة معيار فهم الذات من خلال العلاقة مع الآخر، وهذا ما يعطيه الأهمية البالغة[1].

والخطاب الإسلامي - وفقًا لهذا التعريف - هو المتعلق أساسًا بالإسلام، وبالموضوعات الإسلامية على مستوى كل المجالات: الشرعية، والفكرية، والأدبية، والعلمية، والسياسية وغيرها. كما أن أصل الخطاب الإسلامي وجوهره الذي لا يتغير من حيث مصدره ومضمونه هو البيان الشرعي الإلهي المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويتصل بهما جزئيًا الاجتهاد البشري في فهم واستيعاب وتفسير النصوص، وتكييف الواقع مع مستلزماتها. والعلاقة بين المصدر الثابت والجزء المتغير هي علاقة تكامل وتماثل في حال التقارب بينهما، أو علاقة تنافر وتغاير وتضاد في حال التباعد. وعليه فالحديث عن تجديد الخطاب الإسلامي لا يخص أصله الثابت؛ إنما يتعلق بفرعه المتغير دومًا وفق المستجدات والظروف خاصة أن الشرع هو المرجعية الحقيقية في حل إشكاليات الواقع بحكم أنه صادر عن الذات الإلهية، وبالتالي لا ولن يطاله النقصان أو التبديل[2]. ويلاحظ حتمًا العلاقة بين الخطاب كوسيلة والفكر كمرجعية ومحتوى عند تقديم التعريف السابق.

أما عن مكونات الخطاب (التي يشملها التجديد أيضًا) فهي: المضمون أي المحتوى، الطرف المرسِل: وهو من يتولى إيصال مضمون هذا الخطاب، الطرف المستقبِل: وهو المعني بمحتوى الخطاب، وسائل الاتصال: أو جسور التواصل. وهذه المكونات تخضع للمراجعة والتقويم والاستدراك والمتابعة من حين لآخر وفقًا للمتطلبات الظرفية[3].

1- دواعي تجديد الخطاب الاسلامي: دراسة لجهود بعض المفكرين الجزائريين:

مثل الحديث عن جدوى الخطاب الإسلامي الموجه للغرب بالخصوص طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (18- 19م) محورًا لكثير من النقاشات والسجالات الفكرية الدائرة في أرجاء العالم العربي والإسلامي خاصة. وتراوحت المفاهيم المطروحة بين الإصلاح، والتغيير، والإبداع، والتحديث، والتجديد. وكان الوجود الاستعماري التقليدي في كل الأقطار الإسلامية تقريبًا عائقًا أمام أية محاولة جادة لبحث الأمر، وإيجاد المخرج الأمثل، ولذلك لم تتضح معالم الوحدة المفاهيمية في تلك الفترة. وعليه ندرج النماذج التالية من منطلق إسهامها في الشروع بعملية التجديد كضرورة ملحة نابعة من أنفسنا، ومن الحاجة

إليها، وليس من منظور أن تكون مراعية فقط لحضور الغالب أي الاخر. فالتجديد - في هذه الحالة - ليس عملية ترميمية علاجية للوضع القائم مؤقتًا.

الإمام عبد الحميد بن باديس: إمكانية تجديد الخطاب الإسلامي:

يعد الشيخ عبد الحميد بن باديس[4] رائد الحركة الإصلاحية بالجزائر؛ لأنه ساهم في تكوين مجموعة منظمة ومتماسكة من الأفراد الواعين بأدوارهم في الحياة، متمسكين بهويتهم، معتزين بانتمائهم، ومدافعين عن وطنهم المسلوب؛ عرفوا واستوعبوا خطر الوجود الاستعماري وممارساته، وكذا التخلف الناجم عنه.

ولم يغفل الشيخ ابن باديس عن فتح جسور التواصل مع الآخر؛ سواءً كان معارضًا له (كبعض الطرق الصوفية مثلا)، أو عدوًا مباشرًا (كالمستعمر وأذنابه)، وشرح ابن باديس ضوابط تلك العلاقة، ومنهج التجديد في الخطاب الاسلامي الفعال، ونستشهد على ذلك بقوله: ".. إنما ينفع المجتمع الإنساني، ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه، ونظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله؛ فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح شأنه في الحال، ومد يده لبناء المستقبل.يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه مُعرضًا عما لا حاجة له به، أو ما لا يتناسب وشكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته"[5]. فهو يدعو من خلال هذا القول إلى الجمع بين المشترك والخاص من التراث الإنساني.

وأبدى ابن باديس رؤية واضحة ومكتملة في فلسفته عن مسألة تجديد الخطاب الإسلامي، حيث شرح أبعاد الوجود الإنساني، والحاجة إلى التواصل الحضاري المنهج والمثالي، ونذكر مثالا عن ذلك مقاله الشهير المعنون بـ "لمن أعيش؟"[6]، ومما جاء فيه المقتطف التالي: ".. إنني أعيش للإسلام.. إنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها إلا به، وان خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه.. فإذا عشت له؛ فإنني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا؛ إلا بالإسلام الذي ندين به، ونعيش له، ونعمل من أجله"[7].

وفسر ابن باديس مستويات التبادل الحضاري المأمول فقال: ".. إذا أردنا اليوم أن نقتبس منهم [أي الغرب] كما اقتبسوا منا، ونأخذ عنهم كما أخذوا منا؛ فعلينا أن نخاطبهم ونخالطهم في ديارهم، حيث مظاهر مدنيتهم الفخمة، في مؤسساتهم العلمية والصناعية والتجارية، في أحزابهم على اختلاف مبادئها، في جمعياتهم على اختلاف غاياتها، في عظمائهم أصحاب الأدمغة الكبيرة التي تمسك بدفة السياسة، وتدير لولب التجارة، وتسير سفينة العلم. فالذين يخالطونهم هذه المخالطة بتمام تبصر وحسن استفادة؛ يخدمون أنفسهم وأمتهم خدمة لا تقدر؛ خدمة تكون أساسًا للتقدم والرقي"[8].

لقد فهم ابن باديس لعبة الاستعمار في الجزائر (وفي كل البلدان)، حيث حاول هذا الاخير أن يقطع صلة الإنسان بأية روابط له سواءً كانت روحية أو اجتماعية وفكرية، وأن يفقده إحساسه بحركة الزمان والمكان فيعيش دون هدف في الحياة، ولا يعد وجوده؛ إلا بكونه صفرًا على اليسار. وعليه انتهى ابن باديس إلى ضرورة دخول المواجهة غير المتكافئة متسلحين بالإسلام والإرادة لإعداد جيل التغيير بواسطة التعليم والتكوين خاصة[9]. فهو قد استوعب أزمة العصر المتمثلة في اختلال التوازن بين الدين والعلم، وبين الاسلام والعمل، وأيقن أن نجاح أي مسعى للمسلمين أمام الآخر هو في وفائهم لعقيدة التوحيد، وبمدى قدرتهم على إعادة إحياء عنصري العلم والعمل.

إن الشيخ ابن باديس آمن بإمكانية نجاح مهمة التخلص من الاستعمار والتخلف؛ عن طريق الدين والعمل، وبذلك يسهل علينا توجيه خطابنا المتوازن، والمبني على أسس صحيحة بصيغته المتجددة المراعية للظروف السائدة، ولتسارع الواقع الزمني والتقني للإنسان.فإمكانية تجديد الخطاب الإسلامي عند الشيخ تتطلب مراجعة الماضي، وفهم الحاضر، والانطلاق بثبات نحو المستقبل.

وكان الخطاب الباديسي عمومًا عصريًا محافظًا على الذات والهوية؛ لكنه فصل بين المشترك والخصوصي، وبدا وسطيًا عمليًا حاول التنبيه إلى مجمل عوائق الخطاب السليم، ومن ثمة الانتقال في المرحلة اللاحقة إلى تفصيل الوضعية المقبلة مستقبلا. كما دعا إلى التعارف الحضاري الذي يسبق الحوار، ثم التعايش. ووضع أسس تصحيح الذات، والانطلاق بها وفق خصوصياتنا وهويتنا ورؤانا المستقبلية لا كما يفرضه الآخرون. أي أن تجديد الخطاب - حسبه - يقتضي ويتطلب مراجعة وتقويم الذات[10].

الشيخ البشير الابراهيمي: مشروعية تجديد الخطاب الإسلامي:

مثل الشيخ محمد البشير الابراهيمي ثقلا فكريًا وأدبيًا في الجزائر وخارجها لمدة أزيد من نصف قرن؛ قضاها في بناء الحركة المتجددة التي أسسها رفقة صديقه الشيخ عبد الحميد بن باديس، فكان الابراهيمي مؤمنًا بالتغيير الهادئ الذي يحول المياه الراكدة إلى تيارات بحرية تجرف ما يعترض سبيلها، وكانت له اسهامات عدة في ميادين كثيرة[11]، ونكتفي في هذا المقام بإدراج اعتراف أحد أصدقائه بمواهبه الفذة، وهو الشيخ محمد بن ابراهيم الكتاني، حيث قال عنه: ".. كان آية في علمه الواسع، وأدبه الرفيع، وخلقه النبيل، ودينه المتين، وإخلاصه، وسعة أفق تفكيره، وبعد نظره، وإنكاره لذاته، وتفانيه في خدمة أمته، وتوفيقه في أعماله وأقواله، وحسن تربيته لطلبته ومريديه وللجماهير المتصلة به، وتسخيره كلمه العزيز في تعليم أمته، ورفع مستواها، واستغراق أوقاته في مواجهة المشاكل

الوقتية، وتضحيته بحظ نفسه في القراءة والمطالعة والتأليف، ووفائه العديم النظير لأصدقائه وأحبابه، ويا ما أكثرهم. ونجاحه في أن يحول الجزائر - مع أصدقائه ورفقائه وتلامذته وأعوانه من الحالة التي كانت عليها في أعقاب الحرب العالمية الأولى - إلى جزائر الثورة المباركة معجزة الإسلام الكبرى في العصر الحديث"[12].

ولكن ما يلفت الانتباه بخصوص شخصية الابراهيمي وملامح فكره هو أنها ارتبطت بالواقع، بحيث درس مشكلات الإنسان المسلم (وخاصة بالبلدان المستعمرة)، وآمن بقوة بإمكانية تجديد الخطاب الإسلامي عن طريق إعادة فحص المنظومة الفكرية والفلسفية المتوارثة لدى المسلمين منذ أيام الخلافة الأولى، والتي لم يلحقها الانسجام وروح العصر.

وإن كان الشيخ ابن باديس قد ركز على مراجعة الفكر أولا؛ فإن الابراهيمي ربط عملية التجديد تلك بالممارسة، والخطاب الاسلامي لديه لا ينبغي أن يقوم على القول والتفكير والتخيل فقط؛ إنما عليه أن يحول القيم إلى أشياء متحركة على أرض الواقع، فقال الابراهيمي في هذا الشأن ما يلي: ".. لو سألتموني - أيها الإخوان - ماذا أحببت من الأمة العربية، ولماذا أحببتها هذ الحب الذي بلغ درجة الافتتان، واولها جاهلي، وآخرها جاهلي؛ لأجبت جوابًا يأكل الأجوبة كلها، ويسكت الشقاشق الهادرة، وهو أنني أحببت منها ما أحب الله، واذا كانت في أولها ضالة فقد هداها القرآن يوم عرفته، وإذا رجعت إلى ضلالها القديم فسيرجع القرآن بها يوم تعرفه إلى الهداية؛ رغم أنف أوربا وتلامذتها المغرورين بها، ورغم أسواقها العامرة بكل شيء إلا الهدى، وأبواقها الفارغة من كل شيء إلا الصدى"[13].

وواصل الشيخ الابراهيمي تشريحه لأولويات المرحلة فقال: ".. إن العلم بين أهله رحم يجب أن تبل ببلالها، وغير كثير على ذويها أن يتعارفوا، وأن يتلاقوا على صلة تلك الرحم، وأن يتعاونوا على البر بها، وأن يتعاهدوها بالإشاعة بعد الإضاعة، وأن يتنازعوا أمر العلم بينهم؛ فينفوا عنه تحريف الجاهلية، وانتحال المبطلين"[14].

ولم يغفل الابراهيمي التنبيه إلى حاجة الأمة المسلمة إلى تجديد خطابها كمرحلة أولية في مسعاها للانتفاع من منجزات الحضارة الغربية المادية، ووجه أيضًا عين الاهتمام إلى مواطنيه؛ داعيًا إياهم إلى العمل والجد، والتخلص من المخلفات الثقيلة التي أورثهم إياها الاستعمار، وخص طبقة العلماء والمثقفين والمصلحين بضرورة القيام بدورهم في هذه المهمة المأمولة؛ فنجده كتب ما يلي: ".. إن الأمم إذا اضطرم شعورها بالحاجة إلى الشيء؛ اتجهت أنظارها إلى قادتها، وتحركت ألسنتها بالتساؤل عن رجالها؛ فإذا كانت سعيدة مهيأة للخير لباها رجالها من أول دعوة، ووجدت قادتها في مقدمة الصفوف، وإذا كانت شقية مقدرًا لها

الذل والخذلان؛ وجدتهم لاهين لاعبين، أو متنابزين مضطربين منعزلين في أخريات القوافل؛ منتشرين على هوامش ركب الحياة؛ قانعين بالمدار الضيق الذي يدورون فيه مثقلين بالقيود المرهقة التي قيدتهم المعيشة بسلاسلها وأغلالها، فتفوت الفرص، ويفوز السابقون المبكرون، وتقسم مغانم الحياة، وتبدل الأرض غير الأرض، والأمة ورجالها متباعدون مع قرب الدار، .. ثم يصيحون وقد فات العمل، وخاب الأمل، وحقت الكلمة، وهذه حالتنا وحالة أمتنا معنا"[15]. وعليه فالإمام الابراهيمي فهم أبعاد المشكلة التي تعوق الرؤية الصحيحة للعالمين الغربي والمسلمين، واستوعب متطلبات التغيير والتجديد.

الأستاذ مالك بن نبي: ضرورة تجديد الخطاب الإسلامي:

لقد اشتغل الأستاذ مالك بن نبي على القضايا الفكرية المرتبطة بواقع ومستقبل المجتمعات الإسلامية "المتخلفة" بناءً على تشريح وتحليل ماضيها، وعمل من خلال مؤلفاته الكثيرة التي تزيد على العشرين (20) على إيجاد الحلول المثلى لتغيير ذلك الواقع في مقارباته وحال الأمم والدول الأخرى. وخلص ابن نبي إلى أن جملة من المعوقات الذهنية والنفسية والسياسات العامة للحكومات هي التي ساهمت في عدم استكمال المراحل الطبيعية للبناء الحضاري المفترض للدولة الإسلامية.

ورغم أن الأستاذ مالك بن نبي ركز بصورة خاصة على جانب الأفكار، ومدى قابليتها للتطبيق على الواقع؛ إلا أنه أوعز جوهر المشكلة إلى التحولات الكبرى التي أفرزتها الهجمة الاستعمارية الأوروبية بداية مع القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، بالإضافة إلى الأقنعة والأشكال والمبررات الكثيرة التي يختفي وراءها "الغول" الأوروبي عند مواجهته أو في تعامله مع المجتمع المسلم تحت ما أسماه ابن نبي بالصراع الحضاري، فنجده تساءل قائلا: "هل لهذه الكلمة (أي الصراع الفكري) معنى في البلاد المستعمرة؟، وهذه البلاد تجهل على العموم قيمة الفكرة في مصير المجتمعات كما تجهل دقة الخطط التي ترسم من أجل التحكم في مصير الشعوب المتخلفة عن طريق أفكارها؟"[16].

ورأى ابن نبي أيضًا "أن القضية سواءً كانت في إطار اقتصادي، أو في إطار اجتماعي، أو في إطار سياسي تتصل بموقفنا نحن كأفراد؛ تتصل بموقفي كمواطن أمام المشكلات؛ فإنني عاجز عن صياغتها فكريًا، وإذا صحت فكريًا بصورة ما؛ فإنني عاجز عن التصرف في الإمكانيات لحلها، فعجزي إذا مزدوج وليس عجزًا بسيطًا"[17].

وعلى هذا الأساس ربط ابن نبي بين حالة الضعف والتخلف، وولوع المغلوب دومًا بتقليد الغالب، والقابلية للاستعمار التي سيطرت على تفكير المجتمعات الإسلامية، وبين ضرورة

نهوضها بنفسها، والبدء من جديد؛ لا من منطلق القطيعة مع الآخر (أي الغرب)، وإنما ببث الفاعلية في التفكير والإنجاز، ومن ثمة يقتضي تجديد الخطاب الإسلامي دخول التحدي المزدوج المفروض مع الذات أولا، ومع الآخرين ثانيًا. ورأى ابن نبي أن هذا التجديد هو فعلا أولوية مطلوبة في المرحلة الراهنة؛ خاصة أن الرؤية المستقبلية بشأن حال المجتمعات الإسلامية لم تكن واضحة تمامًا بالنظر إلى عدم إقامة الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية المتينة التي يمكنها المقاومة: "لأن من يفقد القدرة على الصعود؛ لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض"[18].

لقد أشار الأستاذ مالك بن نبي إذًا إلى أن تجديد الخطاب الإسلامي ينطلق أساسًا من العمل التغييري الجاد للمجتمع، حيث لا يُتصور تشييد صرح الحضارة (أو على الأقل الإسهام في ذلك)، وبالتالي صنع التاريخ؛ إلا بالاتزان بين العقل والعمل، وضرورة تمتع كليهما بالتفكير الصحيح، والفاعلية في الأداء. ولم يغفل الأستاذ الأساس الديني في هذه المعادلة من منطلق المثل القائل: "أن لا دين لمن لا عقل له"، حيث قال: "إن الفكرة الدينية تحدث تغييرًا حتى في سمة الفرد ومظاهره، وتغير من نفسه"[19]. واستمر ابن نبي في طرح تساؤلات - فلسفية أحيانًا - عن جدوى صراع الأفكار، وأولوية تجديد الخطاب الإسلامي في ظل عدم تحديدنا أصلا لملامح الفكرة المطلوبة التي ستصنع الفارق: هل هي كل إرث فكري؟، أم يستلزم الأمر أن تكون أفكارًا جديدة ومستحدثة؟ (ويفرق طبعًا هنا ابن نبي بين الحداثة كمرحلة تاريخية والفكر المعاصر). ورأى في معرض تحليله لهذه المسألة أن الأفكار نوعان: أفكار ميتة وقاتلة، وأفكار ذات فعالية وناجحة: الأولى توقف عجلة التقدم الحضاري، وتجمد العقل، والثانية بإمكانها إيقاظ الحيوية فيه؛ فقال: "إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها، وإنما يفتح دروبًا جديدة، ولا يتحقق ذلك؛ إلا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الأخلاقي، وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات البناء في مجتمع يريد إعادة بناء نفسه"[20]. ورأى بهذا الخصوص أيضًا أن "الفكرة" في سياق تجديد الخطاب قد تولد مرتين: مرة أولى حين تزرع في البيئة المناسبة والملائمة لتطورها، والمرة الثانية حين يكتمل نموها، وتهاجر من مكان لآخر؛ لتعاد زراعتها أيضًا وهكذا: ".. فنشر الفكر الإسلامي لا يقتضي؛ كما يفعل البعض البكاء على الماضي، بل بالعكس أن يتموضع هذا الفكر الإسلامي في حركة المسلم يوميًا، وفي فعاليته في شتى مجالات الحياة"[21].

والخلاص حسب الأستاذ يكمن في أن تخرج المجتمعات الإسلامية من صناعة الكلام إلى صناعة الإنسان، ومن الاستهلاك إلى الإنتاج، ومن العبثية إلى الغائية، ومن الجمود إلى

الفاعلية، ومن السلبية إلى الإيجابية، ومن اختلاق المبرر إلى إيجاد السبب، ومن الوهم إلى الحقيقة.

تقييم:

لاشك أن الشخصيات الثلاث المذكورة تعد إحدى النماذج الفكرية في الجزائر، والتي حملت مشروعًا متكاملا؛ بشأن تصحيح واقع العالم الإسلامي، ومن ثمة السعي لإيجاد آليات الروابط المؤسسة للعلاقة مع الآخر عن طريق تجديد الخطاب الإسلامي. وإن اتجه الشيخ ابن باديس إلى الدعوة لخوض المعركة من واقع حقيقي فرضه الوجود الاستعماري؛ فإن الشيخ الإبراهيمي رأى بضرورة التخلي عن "الأنانية" مادام الحق في الحياة مشروعًا، أما الأستاذ مالك بن نبي فوضع ميكانيزمات مترابطة للرؤية النقدية الخاصة بمعوقات تجديد الخطاب الإسلامي في الألفية الثانية، وأحالنا إلى مراجعة شاملة لسلم القيم من اجل تخطي تلك العوائق.

خاتمـــــــة:

ما يمكن قوله في خاتمة هذه الدراسة هو أن الخطاب والفكر الديني في المجتمعات الإسلامية يعد في آن واحد العصب المنظم للعقل والموجه للسلوك العام. وهو أيضًا جسر للتواصل مع الأمم الأخرى. وأن أية اهتزازات مفاجئة تطرأ عليه تنعكس بصورة آلية على المنظومة التصورية العامة لتمثل الآخرين. وهكذا يكون تجديد الخطاب الإسلامي ضرورة لمواجهة التسارع الحضاري، ويتم ذلك عبر خطط ممنهجة تنبني أصولها على مراعاة الثوابت الأصيلة والمتغيرات الآنية.

وبالنسبة للنماذج الفكرية التي ذكرناها سابقًا (ابن باديس، الإبراهيمي، بن نبي) فقد حاول كل منها اقتراح آليات فعالة لتجديد الفكر الإسلامي وفقًا لتلك المرحلة، وقدموا -في سبيل عرض مشروعهم - دعوة للارتكاز على جملة من الأسس الفكرية المرتبطة بالأصول؛ في محاولة للوصول إلى امتلاك ميكانزمات الرؤية الحديثة للتطور المجتمعي في العالم، وذلك حتى تتوسع دائرة المكتسبات المشروعة من عملية التجديد. كما أن هؤلاء الثلاثة حاولوا التأكيد على ضرورة تجديد الرؤية النصية، وضبط كيفية التعامل مع المصدر الديني (طرح ابن باديس)، مع توظيف المحتوى النصي لمراجعة الذات (طرح الإبراهيمي)؛ بالإضافة إلى استحضار الحد الأدنى من الإرادة والوعي والعمل لخوض معركة التحديات المقبلة (طرح ابن نبي).

ولأن الأفكار مهما كانت قيمتها المعرفية، وثراؤها الإيديولوجي لا تنفع ولا تؤدي الغرض المبتغى منها؛ إلا إذا خرجت من عالم المثل إلى مجال العمل والتطبيق، فإذا ما تحسسها الناس في الواقع يتم إدراك وتحديد مدى صلاحها أو فسادها. فالحديث عن تجديد الخطاب أيضًا يقتضي منا حتمًا إخراج الأفكار من المثالي إلى الملموس، من الديني الخالص إلى العملي المنسجم والنص الشرعي. وتجديد الخطاب الاسلامي في هذه الحالة يعني باختصار تحيين الأفكار، والأسلوب، والوسائل، والمقاصد. ومن المهم معرفة أن المقاصد هنا لا تقتصر على رفاه وتعايش المجتمعات الإنسانية المختلفة وحسب؛ إنما في إيجاد سبل الراحة والسعادة الروحية للإنسان أيضًا، وتحقيق الاستقرار والعيش الجماعي.

الهوامش:

1- انظر: رضوان جودت زيادة: **سؤال التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر**، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004، ط1، ص 34- 35. وطالع مثلا: محمد اقبال: **تجديد التفكير الديني في الاسلام**، تر. عباس محمود، بيروت، 1985م، ص 109.

2- رضوان جودت زيادة، المرجع السابق، ص 39. وانظر لأكثر تفصيل: محمد الفران: **مظاهر التجديد في الخطاب الاسلامي المعاصر**، 2007م، ص 32.

3- انظر: علي مراد: **الإسلام المعاصر**، تر. محمود علي مراد، دار دحلب، الجزائر، 1995م، ص 97- 98. وعن أهم التحديات المعاصرة التي تواجه الإسلام والخطاب الإسلام؛ انظر: نصر الدين مصباح القاضي: **منهج الإسلام في مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة**، دار الفكر العربي، القاهرة، 2002م، ط1، ص 167 وما بعدها.

4- **آثار الإمام عبد الحميد بن باديس**، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1994م، ط01، ج01، ص 173.

5- نقلا عن: السلفية والتواصل الحضاري في خطاب ابن باديس، مجلة **الحرس الوطني**، (26/ 01/ 2012م).http://www.binbadis.net/index.php.

6- **الشهاب**، م10، (جانفي 1937م)، ص 112.

7- المصدر نفسه.

8- **الشهاب**، م6، (فيفري 1925م)، ص 67.

9- انظر بالخصوص: رابح تركي: **الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

10- **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ج02، ص 13. وانظر أيضًا: محمد عباس: **البشير الإبراهيمي أديبًا**، دار الفجر، الجزائر، ص 31.

11- ونستحضر هنا قول المفكر **محمد رشيد رضا** (1865- 1935م): "**لقد حفيت الأقلام، وخفقت الأصوات من كثرة ما كتبنا وخطبنا في موضوع شقاء المسلمين بدينهم الذي سعد به أسلافهم، وبينا أن علة الشقاء إنما هي في ابتداعهم فيه؛ لا في اتباعهم له، وفي لبسه كما يلبس الفرو مقلوبًا كما قال الإمام علي كرم الله وجهه في بعض أهل عصره**". انظر: مجلة **المنار**، م03، (1317هـ/ 1900- 1901م)، ص 244. وانظر أيضًا: علي مراد، المرجع السابق، ص 67.

12- نقلا عن: محمد خير الدين: **مذكرات**، دار دحلب، الجزائر، 1985م، ج 2، ص 412.

13- من محاضرة ألقاها الشيخ في أحد نوادي مدينة تلمسان سنة 1943م؛ نقلا عن: مقتطفات من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2009م، ص 45- 46.

14-الإبراهيمي: كلمة ألقيت في مجمع اللغة العربية بدمشق ارتجالا في جوان 1953م؛ نقلا عن: المصدر نفسه، ص 37.

15-المصدر نفسه.

16- نقلا عن: مالك بن نبي: **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، دار الفكر، دمشق، 1979م، ص 32. وانظر أيضًا: مالك بن نبي: **بين الرشاد والتيه**، دار الفكر، دمشق، 1978م، ط1، ص 141 وما بعدها.

17-مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ص 49. واضاف مالك بن نبي في نقطة متصلة قوله: "**إن الشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكوّن النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة، وهذا الكائن هو في ذاته الحضارة؛ اذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء**". انظر: مالك بن نبي: **ميلاد مجتمع**، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986م، ط03، ص 66.

18-مالك بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي**، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1970م، ط02، ص 26.

19- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، المرجع السابق، ص 91.

20 - نقلا عن: مالك بن نبي: **مشكلة الافكار في العالم الإسلامي**، تر. محمد عبد العظيم، القاهرة، 1970م، ص 209.وانظر: محمد الفران، المرجع السابق، ص 74. وانظر الفصل الثالث الخاص بمفاهيم واتجاهات التجديد.

21- مالك بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي**، المرجع السابق، ص 73.